ثبات وقوة

obeikandi.com

obeikandl.com

ثَبَاتٌ
وقُـوَّة

إنَّ القرآن الكريم قد عمل عملَه في ذات الرَّسُول أوَّلاً.

ومَا حقّقه القرآن في خاصَّةِ نفسه وهو يتلقّاه كان أعظم مما يتصوره كثيرٌ من الناس؛ ذلك أن الرَّسُول ﷺ قد عَلِمَ ـ منذ نُوديَ ﴿ ٱقْرَأْ ﴾[1] ـ أنه يتلقّى القرآنَ من لَدُن حكيمٍ عليم.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾.[2]

فكانت الصلةُ بينه وبين أمينِ السماء ـ وهو ينزل بكلمات الله ـ مصدر قوةٍ ويقين بنصر الله.

فلم تهن ـ قط ـ عزيمتُه، ولم تضعُف إرادتُه أو مروءتُه.

ولم يخش ـ في سخائه ـ من ذي العرشِ إقلالاً.

ولا خاف ـ في البأساء والضَّراء وحين البأسِ ـ من الله خُذْلاناً.

إنه قد عرف منذ نُوديَ ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ أنه رسولٌ يُعَبِّرُ ـ في كُلِّ شأنٍ ـ عن صفات مَن أرسله.

فهو (عزيزٌ) يستمدُّ عِزَّتَهُ من القويِّ العزيز.

(رحيمٌ) يستمدُّ رحمتَهُ من الرحمن الرحيم.

---

(1) العلق:١.

(2) الشعراء: ١٩٢.

(مُرْسَلٌ بالهُدى ودين الحقّ) والله هو الحقُّ، وهو يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم.

من هنا لم تَستطع جميعُ الوسائل أن تَحُولَ بينه وبين ما أُرْسِلَ له، وما بُعِثَ من أجله.

إنه قد انفعل بالوحي انفعالَ مَن رأى القوَّةَ وشاهدها، ومَن عَرف الرحمةَ وأُوتيهَا، ومن اتصل بالله فأغناه الله عَمَّن سواه.

إنه قد آمن بما أُرْسِلَ به قبل أن يؤمنَ الناس.

وعرف قَدْرَ ما أُرْسِلَ به؛ لأنه عرف قَدْرَ مَن أرسله.

فلا غرابةَ أن نراه ﷺ يقولُ لِعَمِّه:

« وَاللّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ، مَا تَرَكْتُهُ حَتّى يُظْهِرَهُ اللّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ ».

قال ذلك عندما قال له عَمُّهُ: « يا ابنَ أخي، إنَّ القوم جاءوني، فقالوا لي كذا، فأبق على نفسك، ولا تُحملني من الأمر ما لا أُطيق »

فظنَّ الرَّسُول ﷺ أن عمَّهُ خَاذِلَهُ، وقال له ما لم يَجْرِ على لسانٍ قط: « والله لو وَضَعُوا الشمس في يميني...... ».

دلالة على أن جميع المحاولات لو بلغت هذا المبلغ لَن تجعله يترك هذا الأمر.

ثم بكى وولَّى.

فقال أبو طالب: أَقْبِل يا ابن أخي.

فأَقْبَلَ عليه، فقال: « اذهب فَقُلْ ما أحببتَ، والله لا أُسلمك »[1]

ولا غرابة أن يعرض عليه مُوفَدُ قريش ما يعرضه، فتكون إجابته قرآناً يُتْلَى على مُوفَدِ قريش، ولا يزيد.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: عَنْ مُحَمّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيّ، قَالَ:

حُدّثْت أَنّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ـ وَكَانَ سَيّدًا ـ قَالَ يَوْمًا ـ وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ اللّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ ـ:

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ،أَلا أَقُومُ إلَى مُحَمّدٍ فَأُكَلّمَهُ وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا؛ لَعَلّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا فَنُعْطِيهِ أَيّهَا شَاءَ، وَيَكُفّ عَنّا ؟. وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ، وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ يَزِيدُونَ وَيَكْثُرُونَ.

فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، قُمْ إلَيْهِ فَكَلّمْهُ..

فَقَامَ إلَيْهِ عُتْبَةُ، حَتّى جَلَسَ إلَى رَسُولِ اللّه ﷺ فَقَالَ:

يَا ابْنَ أَخِي، إنّك مِنّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنْ السّطَةِ فِي الْعَشِيرَةِ، وَالْمَكَانِ فِي النّسَبِ.

وَإِنّك قَدْ أَتَيْت قَوْمَك بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، فَرّقْت بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، وَسَفّهْت بِهِ أَحْلامَهُمْ، وَعِبْت بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَكَفّرْت بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ..

فَاسْمَعْ مِنّي أَعْرِضْ عَلَيْك أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا؛ لَعَلّك تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا.

قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: « قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ »

قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إنْ كُنْت إنّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الأَمْرِ مَالاً جَمَعْنَا لَك مِنْ أَمْوَالِنَا حَتّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالاً.

---

(1) سيرة ابن هشام: ٢/١٠١.

وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوَّدْنَاك عَلَيْنَا حَتَّى لا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَك.

وَإِنْ كُنْت تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَّكْنَاك عَلَيْنَا. وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيك رِئْيًا [1] تَرَاهُ ـ لا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِك ـ طَلَبْنَا لَك الطِّبَّ، وَبَذَلْنَا فِيهِ غَلَبَ التَّابِعُ [2] عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَاوَى مِنْهُ.

حَتَّى إذَا فَرَغَ عُتْبَةُ وَرَسُولُ اللّه ﷺ يَسْتَمِعُ مِنْهُ، قَالَ:

« أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ؟ »

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: « فَاسْمَعْ مِنّي »

قَالَ: أَفْعَلُ.

فَقَالَ ﷺ: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ ﴾.[3]

ثُمّ مَضَى رَسُولُ اللّه ﷺ فِيهَا يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ، فَلَمّا سَمِعَهَا مِنْهُ عُتْبَةُ أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ

ثُمّ انْتَهَى رَسُولُ اللّه ﷺ إلَى السّجْدَةِ مِنْهَا [4] فَسَجَدَ.

(1) الرئي: ما يتراءى للإنسان من الجن.

(2) التابع: من يتبع من الجن.

(3) فصلت: ١ـ ٤.

(4) هي قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (فصلت:٣٧)

ثُمّ قَالَ: « قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْت وَذَاكَ »

فَقَامَ عُتْبَةُ إلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نَحْلِفُ بِاَللّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الّذِي ذَهَبَ بِهِ.

فَلَمّا جَلَسَ إلَيْهِمْ قَالُوا: مَا وَرَاءَك يَا أَبَا الْوَلِيدِ ؟

قَالَ: وَرَائِي أَنّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلاً وَاَللّهِ مَا سَمِعْت مِثْلَهُ قَطّ

وَاَللّهِ مَا هُوَ بِالشّعْرِ وَلا بِالسّحْرِ وَلا بِالْكِهَانَةِ.

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُوهَا بِي، وَخَلّوا بَيْنَ هَذَا الرّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فَاعْتَزِلُوهُ؛ فَوَاَللّهِ لَيَكُونَنّ لِقَوْلِهِ الّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ، فَإِنْ تُصِبْهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى الْعَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وَعِزّهُ عِزّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النّاسِ بِهِ.

قَالُوا: سَحَرَك ـ وَاَللّهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ـ بِلِسَانِهِ.

قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ. (1)

عرض عتبةُ ما عرضَ، ولكنَّ الرَّسُول ﷺ ليس مع شيءٍ ممَّا عرض، إنه هنا مع القرآن.

أليسَ فيما تُلِي عليه من آيات ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ

(1) سيرة ابن هشام: ١٣١/٢.

obeikandl.com

صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾؟ [1]

إنه يستمسك بما أُوحي إليه، ولا يتطلَّعُ إلى شيءٍ من زُخرف الحياة وزينتِها.

إنه لا يُساوَمُ على دعوته، ولا يقبل ـ وهو يعتمد على الله ـ أن يُزحْزَحَ عنها، وهذه قولته: « وَاللّهِ لَوْ وَضَعُوا الشّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ حَتّى يُظْهِرَهُ اللّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ ».

إنه يدعوهم إلى ما هو عليه، لا أنْ يُدعَى إلى ما يحرصون عليه

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [2]

إن جميع المغريات ـ هنا ـ قد تلاشت، وبَدَت تفاهتُها، وظهر اليقينُ، ومضى التوكل على الله مَهيباً أبيًّا، يصدع بالحق، ويجهر بالصدق.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾[3]

توكُّلٌ على الله تمتدُّ به الدَّعْوَةُ، فتواجِه قوى الشرِّ في ثباتٍ،

(1) فصلت: ٣٣ ـ ٣٥.

(2) فصلت: ٦.

(3) الأحزاب: ١ ـ ٣.

وتَصْرَعُ قوى البغي في عدلٍ، وترفعُ ميزانَ الحقِّ في تجرُّدٍ، وتصُون كرامةَ الإنسانِ بإقرار الحقوق والواجبات.

ويُرْوَى أن عتبةَ عندما رجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريشٍ واحتبس عنهم، قال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عُتبةَ إلاّ وقد صَبَأَ إلى محمدٍ، وأعجبه طعامه، وما ذاك إلاّ من حاجةٍ أصابته، فانطلقوا بنا إليه.

فانطلقوا إليه، فقال أبو جهل: يا عُتبةَ، ما حبسك عنّا إلاّ أنك صَبَأْتَ [1] إلى محمدٍ، وأعجبك طعامُه، فإن كان بك حاجة جمعنا لكَ من أموالنا ما يُغنيك عن طعامِ محمد.

فغضب عُتبةُ، وأقسم ألاّ يُكلّمَ محمداً أبداً.

وقال: والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته وقصصْتُ عليه، وقرأ السورةَ إلى قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾.[2]

فأَمْسَكْتُ بِفَمِهِ، وناشدته الرَّحِمَ أن يَكُفَّ.

وقد علمتم أن مُحمداً إذا قال شيئاً لم يكْذِبْ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب.

ذاك هو القرآن والرَّسُول يتلوه.

لم يُجِب الرسولُ بشيء غيره، ولم يُعالج ما هُم عليه بأمرٍ سواه.

---

(1) الصابئ: الخارج عن دين قومه.

(2) فصلت: ١٣.

وَيَا لَيْتَنَا نُدركُ هذه الحقيقة؛ ليكون القرآن لنا منهجاً وخُلُقاً، فلا ندفع بالسيئة السيئة، وإنما ندفع بالحسنة السيئة.

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.[1]

يا ليتنا نعتصم بالقرآن، فنتعلم كيف نُخاطِبُ بالحق مَن آمن بالباطل، وأن نتَّقي الله فيمَن عَصَىَ الله فِينا، فننتصر لله، لا لأهوائِنا؛ فَمَا عاقبتَ مَن عَصَى الله فيك، بمثلِ أنْ تتقي الله فيه.

يا ليتَنَا نَحيا بفِقه القرآن، فلا نُؤخَذُ بعيداً عن الحقِّ بإغراءِ زينةٍ أو متاع.

لقد رأينا ما عَرَضَه "ابنُ ربيعة" على رسول الله ﷺ، وما نَطَقَ به من هُرَاءٍ وأهواء، فلم يَرُد الرسولُ ﷺ على شيء من ذلك بكلمةٍ واحدة بعيداً عن القرآن، وقد جاء الرَّدُّ بالقرآن قاطِعاً مُزْهِقاً لكُلِّ باطلٍ، بلاغاً وإنذاراً للعالمين.

جاء القرآن بالحقِّ الذي لا يستغني عنه إنسان.

والذي سمعه "عتبةُ" فعاد إلى نادي قريش بغير الوجه الذي ذهبَ به، وقال فيما قال: « والله ليكونَنَّ لما سمعتُ من كلامه نبأ » وقد كان عتبةُ قد عَرَضَ على رسول اللهِ ﷺ - فيما عرض - المالَ، والنِّساءَ، والمُلْكَ.

إغراءٌ لِمَن تعلَّقَ بدُنياه. بها يُستَخَفُّ مَن لم يُوقِنُ بيوم الجزاء، وبها يُستَدْرَجُ مَن تَسُوءُ عُقباه.

(1) فصلت: ٣٤.

أمورٌ يَعْرِضها "عتبةُ" على رسول الله ﷺ وهي أقصى ما يتمناه مَن رَضِيَ بالحياة الدنيا واطْمَأَنَّ بها. ولا يلتفِتُ إليها ـ أو يُؤخَذُ بها ـ مَن كان يرجو الله والدارَ الآخرة. فمَا بَالك برسول الله ﷺ !؟

ولا تَسَلْ عن قيمة الإنسان عندما ينحصرُ في هذه الدائرة الضيقة، ولا يرى نَفْسَهُ إلاَّ بها.

يُصبِحُ عَبْداً لهذه الأعراض، تملكه وإنْ تَوَهَّمَ أنه يملكها.

وقد انحصر المبطلون في ذلك، فلم يَرَوا من مقومات عظمةِ الإنسان غيرَ ذلك.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ ﴾.[1]

ما مقومات العظمة لمن يرونه أَحَق بتنزيل القرآن عليه ؟

شاةٌ أو بَعِيرٌ، يزدَانُ بهما عظيمٌ في مكة أو الطائف.

وما دَرَوا أنَّ الإنسان لا يَعْظُمُ بأعراضٍ خارجة عنه.

وإنما يَعْظُمُ بصفاتٍ قائمةٍ فيه.

لا يعظُم الإنسانُ حين يُقالُ: ذُو مَالٍ كثِيرٍ.

وإنما يعظُمُ عندما يكون ذا خُلُقٍ عظيم.

وهُم عندما قالوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ

(1) الزخرف: ٣٠، ٣١.

obeikandi.com

عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ إنما يعنُون أكثرَهم مالاً في مكة أو الطائف.

والرسل إنما جاءوا لِيَصِلُوا الإنسانَ بموطن عزَّته، ويرتفعوا به من الخلود إلى الأرض، فلا يزل لصنمٍ أو حجر، أو شجر أو بشر، أو يسجد لشمسٍ أو قمر.

يعزّ الإنسان ويسمو عندما يخرج من عبادة العباد إلى عبادة الله.

من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾.[1]

وهذا ما تلاه الرسول ﷺ على عُتبة، من صَدْرِ سورة "فُصِّلت" فيما تلاه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾.[2]

ومَن عرف ذلك أخضع كُلَّ شيء من أعراض الحياة لهذه الحقيقة.

حقيقة أنه: عبدٌ لله، لا لشيء سواه.

وهذا ما أُمِرَ به الرسول، وما دعا إليه، وما انتصر به.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾.[1]

---

(1) الأنبياء: ٢٥.

(2) فصلت: ٦.

تلك هي حِكمة الخَلق، وغاية الوجود.

إذا جَهِلَهَا الإنسانُ صَرَعَتْهُ الأهواءُ والشهوات.

واستحوذَ عليه الشيطانُ، فأنساه ذِكْرَ الله.

لقد قالت قريش في رسول الله ما قالت، وقد عَبَّر مُوفَدُ قريش بما يدور في نفوسهم، فأعرض ﷺ عنهم، وَصَدَعَ بما أُمر.

ورأيناه ﷺ يتلو عليهم ما خُوطِبَ به.

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.(2)

وما يقولونه وما يفعلونه ليس بخَافٍ على الله ولا محجوباً عنه، وإن تناجَوا به.

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.(3)

ولا يخفى ما يدل عليه قولُ الله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ ﴾ وما يترتَّبُ عليه.

أمَّا بالنسبة لرسول الله ﷺ: فإنه التكريم والتأييد، والحفاوة

---

(1) الرعد: ٣٦.

(2) الحجر: ٩٤ـ ٩٦.

(3) الحجر: ٩٧ـ ٩٩.

والمؤانسة من الله وهو يُخاطِبُ نَبيَّهُ بقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ﴾

كما يُخاطبه بقوله: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾.(1)

ويا لها من قوة يستمدها الرَّسُول وهو يُخاطَبُ بهذا القول الكريم من ذي قوة عند ذي العرش مكين.

والقول يُسنَدُ إلى جبريل باعتبار نزوله به ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ ﴾.(2)

ولا تخفى دلالة ذلك على أُولي الألباب.

وأَمَّا بالنسبة للآخرين: فإنَّ فيه دعوةٌ لهم أن يتوبوا ويرجعوا؛ فإنهم ليسوا بسابقين ولا مُعجِزين. واللّه محيطٌ بما يقولون وما يَفْعَلون.

ومن التَّسرية والتسلية لرسول الله ﷺ والإغراء لهم أن يتوبوا عمَّا يقولون ـ ما جاء في قوله تعالى في سورة "فُصلت":

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ۝ ﴾.(3)

إن ربَّك لذو مغفرةٍ لمن تاب، وذو عقابٍ أليم لِمَن أدبَرَ واستكبر.

لَسْتَ بِدْعاً من الرسل أن يُقالَ لك ما قد قيل؛ فقد قيل للرسل من

(1) الطور: ٤٨.
(2) التكوير: ١٩، ٢٠.
(3) فصلت: ٤٣.

قبلك ما قيل لك:

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ۝٥٤ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥ ﴾.[1]

فَلْيَمْض الرسولُ في سبيله، واللهُ يكفيه.

وَلْيَأْخُذْ زَادَه من الصِّلة بالله، دونَ مُبَالاةٍ بما يفعله هؤلاء.

﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ۝٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ۝٣٧ ﴾.[2]

﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ﴾ والمراد رسولُ الله ﷺ.

بَلَى. هُوَ كَافٍ عبدَه. فإنَّ دُخول همزة الإنكار على كلمةِ النَّفي تُفيد معنى إثباتِ الكفاية وتقريرها.

فالاستفهامُ للتقرير أو للنَّفي، ومعناه: نَفي النَّفي الذي دَخَلَ عليه، ونَفْيُ النفي إثبات. وهُو مبالغةٌ في الإثبات.

فَمَنْ ذا الذي يُخيفه ؟

ومَاذا يُخيفه إذا كَانَ الله معه !؟

(1) الذاريات: ٥٢ – ٥٥.

(2) الزمر: ٣٦، ٣٧.

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ أي: مَنِيعُ الجنَاب، لا يُضَامُ مَن استنَدَ إلى جَنَابِهِ، وَلَجَأَ إلى بَابِهِ.

فإنَّه العزيزُ، الذي لا أَعَزَّ منه.

ولا أَشَدَّ انتقاماً منه مِمَّن كَفَرَ به أَوْ أَشْرَكَ، وَعَانَدَ رَسولَهُ ﷺ وكذَّب.

وهكذا نرى القرآنَ الكريم مع الرسولِ ﷺ في وقائعَ وأحداث.

والرُّوحُ الأمين ينزلُ به، فيقرأ الرسولُ بقراءته، ويتلوه كَمَا أُنزِل عليه.

إنَّ أَعْدَى أعداء رسول الله ﷺ يرى فيه قُوَّةً وَعِزَّةً تُرْهَبُ وتُهَاب، وهو يتلو القرآنَ وليس مِن حوله قُوَّة أو عَتَاد.

وهذا ما كان من "عُتبة" وهو يُمسِكُ على فَم الرسول بيده، ويُناشده الرَّحِم أنْ يُمسك.

وقال حين فَارَقَهُ: « لقد ظننتُ أنَّ صاعقةَ العذابِ على رأسي ».

إنَّه القرآن.

كَمْ هُزِمَ المسلمون، وانتصر هذا الكتاب ؟!

وَكَمْ نَالَ العَدوُّ من ديارِهم، ولم يستطع مغالبةَ آيةٍ منه ؟!

إنَّه القرآن، الذي أُخرجت به خَيْرُ أُمَّة .

بَقِيَ وَحُفِظَ؛ لِتَحْيَا به قلوبٌ، وتَنْعَم نفوس.

كَمَا تحيا الأرضُ الطيبة بالغيث، وتُعطِي عطاءَها بإذن ربِّها..

ويَا لَهُ من تشبيهٍ يُعبِّرُ عن حقيقةِ ما بُعث به الرسول ﷺ حيث قال :

« إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ - عزَّ وجلَّ - مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ

أَصَابَ أَرْضًا ..... الحديث »[1]

فالغيثُ موجودٌ، وممدودٌ، ومحفوظ.

وإنّك لَتَرَى الرسولَ ﷺ - في التشبيه - لا ينفصِلُ عن القرآن، ولا ينفصِلُ القرآنُ عنه؛ لتعلم كيف تقرأ القرآنَ، وكيف تهتدي به.

وأنتَ ترى ذلك في واقع.

فَمَا كان لك أن تسمعَ القرآنَ من جبريل دونَ أن يتلوه عليك بشرٌ رسول.. وقَدْ شاء الله أن يكون الهُدى والنورُ للناس مقترناً ببعثة الرسول.

وأن تكون تلاوة القرآن من نَبيٍّ أُمِّيٍّ، لم يقرأ من قبله من كتابٍ، ولم يَخُطّه بيمينه؛ ليعرف - على الدَّوام - مَا لله من فَضْلٍ ورحمةٍ في بَعثة الرسولِ بالحقِّ والهُدى والنُّور ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[2]

فلا غرابة أن ترى المهابةَ في الرسول وفيما يتلوه من الكتاب، وأن ترى القوة والمنعةَ لمن اقتدى به، واهتدى بهُداه؛ لأنَّ الأمر كُلُّه لله.

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.[3]

وللغيث النازل من السماء هزةٌ في الأرض وحياة.

وللهُدى والنور المُنَزَّلِ على قَلب الرسول تأثيروحياةٌ للنفوس،أي حياة.

(1) مسلم: كتاب الفضائل.

(2) يونس: ٥٨.

(3) النور: ٤٠.

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.[1]

إن الترابط بين الرسول والقرآن ـ أو بين الرسالة والرسول ـ قائم في كل ما تتلوه أو تسمعه من القرآن.

وكثيراً ما ترى صفات للقرآن يُوصَفُ بها الرسول ﷺ.

من ذلك صفات:

ذِكْر، نُور، بَشير، نَذير، هُدى، رَحمة.

وهذا الامتزاج في الصفات يجعلنا نرى الرسول في القرآن، ونرى القرآنَ الكريم فيه.

فليس القرآن بالكتاب الذي يُقرأُ للمعرفة والثقافة وكفى.

وإنما هو الذِّكْرُ الذي يُقْرأ ويُرَى، ويُشَاهَدُ عملاً وخُلقاً في الحياة.

يُقْرَأُ في السطور.

ويَسْكُنُ في الصدور.

ويعمل عَمَلَهُ في القلوب: نوراً، ووَجَلاً، وخشية.

لذلك كان لابُدَّ من تَعَهده في وِرْدٍ يوميٍّ مُتَّصِلٍ، يُقرأُ فيه القرآن الكريم بلا انقطاع، في مدة لا تزيد عن شهر، ولا تَقِلُّ عن سبعة أيام.[2]

(1) الزمر: ٢٣.

(2) روى مسلم، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ـ رضى الله عنهما ـ قَالَ: قَالَ لِى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «

وإلاَّ صَدَأتِ القلوبُ، وَرَانَ عليها.

وَقَدْ نَبَّهَ رسولُ اللّه ﷺ إلى ذلك حيث قال:

« هذه القلوب تصدأُ كما يصدأ الحديد ».

قالوا: يا رسول اللّه، فما جلاؤها؟

قال: « قراءة القرآن ».[1]

ونحن في تطهير أجسادنا ونظافتها هل يمكن أن نقول: تَطَهَّرْنَا بالأمس، وذلك يُغنينا عن اليوم والغد ؟!

أم أننا نداومُ على الطُّهْرِ، ونغتسل مرات ومرات؛ حتى لا يبقى شيء من دَرَنٍ ؟

ومن عجائب القرآن ـ ولا تنقضي عجائبه ـ أنه لا يُمَلُّ، ولاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ.[2]

قيل لـ "جعفر بن محمد الصادق": لِمَ صار الشِّعْرُ والخُطَبُ يُمَلُّ ما أُعيد منها، والقرآن لا يُمَلُّ ؟

فقال: « لأنَّ القرآن حُجَةٌ على أهل الدَّهر الثاني..

كما أنه حُجَّةٌ على أهل الدهر الأول..

فكُلُّ طائفة تتلقاه غَضًّا جديداً..

اقْرَإِ الْقُرْآنَ فِى كُلِّ شَهْرٍ. قَالَ : قُلْتُ: إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً. قَالَ: فَاقْرَأْهُ فِى عِشْرِينَ لَيْلَةً. قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً . قَالَ: فَاقْرَأْهُ فِى سَبْعٍ، وَلاَ تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ » مسلم: كتاب الصوم.

(1) حلية الأولياء، وقال: غريب من حديث نافع وعبد العزيز، تفرد به أبو هشام.

(2) يَخْلَق: من خَلِقَ الثَّوبُ، إذا بَلِي، والمعنى: لا تزول لَذَّةُ قراءته، وطَراوة تلاوته، واستماع أذكاره وأخباره؛ من كثرة تكراره.

obeikandl.com

ولأنَّ كُلَّ امرئ في نفسه متى أعاده وفكَّر فيه، تَلَقَّى منه ـ في كل مرَّةٍ ـ علوماً غَضَّةً، وليس هذا كُلُّه في الشِّعْرِ والخُطَبِ ».

* * *

obeikandl.com